ترتيل القرآن

الترتيل معناه وأركانه:

بين لنا رب العالمين في كتابه الكريم الأسلوب القويم الذي نتلو به كتابه؛ لتتحقق لنا الثمرة المرجوة من تلاوته فقال تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} ١، وقال جل شأنه مخاطبًا نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} ٢.

فالقراءة على مكث أي، بتأنٍ وتمهل هي الترتيل.

معنى الترتيل:

قال الجوهري: الترتيل في القراءة الترسل فيها والتبيين بغير بغي، وكلام رَتِل بالتحريك، أي مرتل، وثغر رَتَل أيضًا إذا كان مستوى لثنيات، ورجل رَتِل مثل تَعِبْ بَيِّن الرتَل أي مُفَلّج الأسنان٣.

وفي القاموس المحيط: الرتل محركة حسن تناسق الشيء.

قال ابن عباس في تفسير "رتل القرآن" بينه، وقال "مجاهد":مدخل في علوم القراءات (ص: ١٠٨)

تأن فيه، وقال الضحاك: انبذه حرفًا حرفًا، أي تلبث في قراءته وتمهل فيها، وافصل الحرف من الحرف الذي بعده١.

من خلال هذه التفسيرات سواء أكانت لغوية أم مأثورة يستبين لنا أن الترتيل يعني البيان والوضوح بحيث تخرج الحروف من مخارجها، وتؤدي أداء جيدًا، وتتحرى الوقف الملائم ونحو هذا، وقد سئل علي –رضي الله عنه– عن الآية: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} فقال: الترتيل تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف.

قال ابن الجزري: الترتيل مصدر رتل فلان كلامه إذا أتبع بعضه بعضًا على مكث وتفهم من غير عجلة، وقد نزل القرآن الكريم بالترتيل، فقال تعالى: {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} ٢، وروى ابن الجزري عن زيد بن ثابت –رضي الله عنه– أن رسول الله –ﷺ– قال: "إن الله يحب أن يقرأ القرآن كما أنزل" ٣.

ولأهمية الترتيل لم تكتف الآية بمجرد الأمر عن طريق الفعل وإنما أكده بالمصدر، تعظيمًا لشأنه، وليكون ذلك عونًا على تدبر القرآن، وتفهمه.

قراءة النبي –ﷺ:

وصفت أم سلمة قراءة النبي –ﷺ– حتى إن الراوي عنها يقول: فإذا هي مفسرة حرفًا حرفًا٤، كما روى ابن أبي مليكة عن أممدخل في علوم القراءات (ص: ١٠٨)

تأن فيه، وقال الضحاك: انبذه حرفًا حرفًا، أي تلبث في قراءته وتمهل فيها، وافصل الحرف من الحرف الذي بعده١.

من خلال هذه التفسيرات سواء أكانت لغوية أم مأثورة يستبين لنا أن الترتيل يعني البيان والوضوح بحيث تخرج الحروف من مخارجها، وتؤدي أداء جيدًا، وتتحرى الوقف الملائم ونحو هذا، وقد سئل علي –رضي الله عنه– عن الآية: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} فقال: الترتيل تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف.

قال ابن الجزري: الترتيل مصدر رتل فلان كلامه إذا أتبع بعضه بعضًا على مكث وتفهم من غير عجلة، وقد نزل القرآن الكريم بالترتيل، فقال تعالى: {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} ٢، وروى ابن الجزري عن زيد بن ثابت –رضي الله عنه– أن رسول الله –ﷺ– قال: "إن الله يحب أن يقرأ القرآن كما أنزل" ٣.

ولأهمية الترتيل لم تكتف الآية بمجرد الأمر عن طريق الفعل وإنما أكده بالمصدر، تعظيمًا لشأنه، وليكون ذلك عونًا على تدبر القرآن، وتفهمه.

قراءة النبي –ﷺ:

وصفت أم سلمة قراءة النبي –ﷺ– حتى إن الراوي عنها يقول: فإذا هي مفسرة حرفًا حرفًا٤، كما روى ابن أبي مليكة عن أممدخل في علوم القراءات (ص: ١١٠)

وسنتحدث عن كليهما فيما بعد.

أنواع القراءة:

ذكر صاحب النشر ثلاثة أنماط لقراءة القرآن هي:

١– التحقيق.

٢– الحدر.

٣– التدوير

١– التحقيق:

وهو الإتيان بالشيء على حقه دون زيادة أو نقصان، فهو بلوغ حقيقة الشيء، والوقوف على كنهه.

والظواهر القرائية لهذه الطريقة تتمثل في: إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد، وتحقيق الهمزة، وإتمام الحركات. واعتماد الإظهار والتشديدات، وتوفية الغنات، وتفكيك الحروف، وهو بيانها، وإخراج بعضها من بعض بالسكت، والترسل، واليسر، والتؤدة، وملاحظة الجائز من الوقوف١، وتتم كل هذه الظواهر دون مبالغة.

والذين قرءوا بالتحقيق حمزة، وورش من غير طريق الأصبهاني عنه.

وقرأ به قتيبة عن الكسائي.

وقرأ به بعض المصريين عن الحلواني عن هشام، وأكثر العراقيين عن الأخفش عن ابن ذكوان.

وذكر ابن الجزري إسنادًا لهذه القراءة يبدأ منه، وينتهي بأبي بن كعب عن رسول الله ﷺ.

وعلق أبو عمرو الداني من قبل على هذا الحديث بأنه غريب "لا أعلمه يحفظ إلا من هذا الوجه، وهو مستقيم الإسناد"٢. مدخل في علوم القراءات (ص: ١١١)

- قراءة الحدر:

هو من حدَر يحدُر "من باب نصر" إذا أسرع، فهو من الحدور أي الهبوط؛ لأن الإسراع من لوازمه على عكس الصعود، فهي قراءة تتسم بالأداء السريع، وتتلاءم مع من يريدون الإكثار من القراءة رغبته في مزيد من الأجر.

وظواهرها القرائية تتمثل من: إدراج القراءة وسرعتها، وتخفيفها بالقصر والتسكين، والاختلاس، والبدل، والإدغام الكبير، وتخفيف الهمزة؛ ونحوها من الظواهر اللغوية التي وردت القراءة بها مع إيثار وصل، وإقامة الإعراب، ومراعاة تقويم اللفظ، وتمكن الحروف.

والقراءة بالحدر مذهب ابن كثير وأبي جعفر، وسائر من قصر المنفصل كأبي عمرو، ويعقوب وقالون، والأصبهاني عن ورش، وكالولي عن حفص، وأكثر العراقيين عن الحلواني عن هشام١.

٣- قراءة التدوير:

فهو عبارة عن التوسط بين المقامين من التحقيق والحدر.

وقد وردت هذه القراءة عن أكثر الأئمة ممن روى من المنفصل، ولم يبلغ فيه إلى الإشباع.

وهو مذهب سائر القراء، وصح عن جميع الأئمة، وهو المختارعند أكثر أهل الأداء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا تنثروه -يعني القرآن- نثر الدقل، ولا تهزوه هزَّ الشعر. وجاءه رجل فقال قرأت المفصل الليلة من ركعة، فقال: هزًّا كهز الشعر. مدخل في علوم القراءات (ص: ١١٢)

أي الأنواع الثلاثة أفضل؟:

ذهب بعضهم إلى أن كثرة القراءة أفضل، ومعنى هذا أنهم، يؤثرون الحدر على التحقيق محتجين بحديث ابن مسعود قال: قال رسول الله -ﷺ: "من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، الحسنة بعشر أمثالها" ١، كما ذكروا آثارًا كثيرة عن السلف في كثرة القراءة.

والذي عليه معظم السلف والخلف أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها؛ لأن المقصود من القرآن الكريم فهمه وتدبره، والتفقه فيه، والعمل به، كما قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} ٢، والتلاوة والحفظ وسيلة إلى فهم المعنى، الذي يلزم المسلم بالعمل والتنفيذ.

وقراءة التحقيق أدنى هذه الأنماط الثلاثة إلى الترتيل.

وإذا نظرنا إلى خصائص قراءة النبي -ﷺ- التي استنتجناها آنفًا نراها أقرب إلى قراءة التحقيق أيضًا؛ إذ تتجه إلى إيضاح المعنى وإبرازه.

وحديث ابن مسعود ليس فيه حث على الإسراع، وإنما فيه بيان للثواب العظيم في القراءة، والذي يضاعفه الله للقارئ المحسن القراءة، المستفيد منها في عمله وسلوكه.

وسئل مجاهد عن رجلين قرأ أحدهما البقرة، والآخر البقرة وآل عمران في الصلاة، وركوعهما، وسجودهما واحد؟ فقال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل٣. مدخل في علوم القراءات (ص: ١١٣)

وقد أسلفنا حديث أبي الدرداء الذي روى فيه ترديد النبي -ﷺ- لآية واحدة حتى الصباح.

وروى ابن الجزري عن محمد بن كعب القرظي قوله: لأن أقرأ ليلتي حتى أصبح: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ} و {القَارِعَةُ} لا أزيد عليهما، وأردد فيهما، وأتفكر أحب إلى من أن أهز القرآن هزًّا١.

ويقول أبو حامد الغزالي: واعلم أن الترتيل يستحب لا لمجرد التدبر، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له أيضًا في القراءة الترتيل والتودة؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرًا في القلب من الهذرمة والاستعجال٢.

بين الترتيل والتحقيق:

أهناك فرق بينهما؟ نقول على ضوء ما سبق: الترتيل أعم من التحقيق، وهو يلائم من يقرأ للتدبر، والتفكر، والاستنباط، أما التحقيق فيكون للتعليم والتمرين، وترويض النشء على القراءة الصحيحة٣.

وعلينا الآن أن نتناول ركني الترتيل اللذين أشرنا إليهما، وهما: التجويد والوقف.

مدخل في علوم القراءات (ص: ١١٤)

التجويد:

التجويد مصدر جود يجود إذا أدى العمل بإتقان وإحسان، والاسم منه الجودة وهي ضد الرداءة.

والمراد به في اصطلاح القراء: الأداء الجيد لحروف القرآن الكريم وكلماته مع بيان ووضوح، وإعطاء كل حرف حقه، ورده إلى مخرجه، ومراعاة الصورة الملائمة في نطقه مع مجاوره، وإعراب ألفاظه، ومراعاة الحدود بمقاديرها الزمنية المناسبة. كل ذلك من غير إسراف ولا تعسف، وبدون إفراط أو تكلف.

والتجويد حلية التلاوة وزينة القراءة، وقد حرص عليه الأسلاف.

وقد أعطي عبد الله بن مسعود حظًّا عظيمًا في تجويد القرآن وترتيله، وكان النبي -ﷺ- يحب سماع القرآن منه، وكانت تبكيه قراءته أحيانًا، حتى قال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ أَحَبَّ أنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ" يعني عبد الله بن مسعود.

كما روى ابن الجزري بسند صحيح عن أبي عثمان النهدي قال صلى بنا ابن مسعود المغرب بـ: {قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ} ووالله لوددت أن قرأ بسورة البقرة من صوته وترتيله[1].

يقول ابن الجزري: وهذه سنة الله تبارك وتعالى فيمن يقرأ القرآن مجودًا، مصححًا، كما أنزل، تلتذ الأسماع بتلاوته، وتخشع القلوب عند قراءته، حتى يكاد يسلب العقول، ويأخذ بالألباب، سر من أسرار الله تعالى يودعه من يشاء من خلقه. ولقد أدركنا من شيوخنا من لم يكنمدخل في علوم القراءات (ص: ١١٥)

له حسن صوت، ولا معرفة بالألحان إلا أنه كان جيد الأداء قيمًا باللفظ، فكان إذا قرأ أطرب المسامع، وأخذ من القلوب بالمجامع، وكان الخلق يزدحمون عليه، ويجتمعون على الاستماع إليه، أمم من الخواص والعوام، يشترك في ذلك من يعرف اللسان العربي ومن لا يعرفه من سائر الأنام مع تركهم جماعات من ذوي الأصوات الحسان[1].

والتجويد أبعد ما يكون عن التكلف في النطق، والتعسف في الأداء، يقول أبو عمرو الداني، مشيرًا إلى الصور المرفوضة في الأداء، والتي ينبغي أن ينأى عنها القراء: فليس التجويد بتمضيع اللسان، ولا بتقعير الفم، ولا بتعويج الفك، ولا بترعيد الصوت، ولا بتمطيط الشد، ولا بتقطيع المد، ولا بتطنين العنات، ولا بحصرمة الراءات، قراءة تنفر منها الطباع، وتمجها القلوب والأسماع، بل القراءة السهلة العذبة، الحلوة اللطيفة التي لا مضغ فيها، ولا لوك، ولا تعسف، ولا تكلف، ولا تصنع ولا تنطع، ولا تخرج عن طباع العرب، وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والأداء[2].

والوصول إلى المستوى الصحيح من تجويد القرآن، يتطلب مزيدًا من الدربة، والمران، والتلقي عمن يحسن الأداء، وكلما أمعن القارئ من الدربة، والرياضة على القراءة الصحيحة، بعيدة عن مساوئ التكلف وصل ما يريد من التجويد.

وبجانب هذا كله فإن قراءة القرآن عبادة تتطلب حسن النية، وإخلاص العمل، والرغبة الصادقة في التقرب إلى الله بتلاوة كتابه، والعمل بما فيه: مدخل في علوم القراءات (ص: ١١٦)

{الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} ١.

وحق التلاوة هو العمل والتنفيذ.

ومن خلال ما أسلفناه من كلام أئمة القراء عن "التجويد" يتبين لنا أنه يقوم على مراعاة الأمور الصوتية التالية:

أ- معرفة مخارج الحروف، وإخراج كل حرف من مخرجه الصحيح.

ب- معرفة صفات الحروف، ليأخذ كل حرف صفته التي تميزه عن غيره من الحروف التي تشاركه في المخرج.

ج- مراعاة الإظهار، والإخفاء، والإدغام، والإقلاب بصورها المتعددة شفوية كانت أو حلقية. وقضايا التفخيم والترقيق.

د- المد، وأسبابه، وأنواعه، والمدى الزمني لكل نوع من هذه الأنواع.

وقد دونت منذ مدى بعيد كتب في تجويد القرآن الكريم، وهي في جوهرها دراسات صوتية تتناول قضايا النبر، والتزمين، ومخارج الحروف، وصفاتها ونحو ذلك مما يؤكد أن العرب أسبق من بحث في هذه القضايا اللسانية.

ومن هذه المؤلفات: مؤلفات تناولت مسائل التجويد والأداء بين ما تناولته من موضعات القراءات تأريخًا وأصولًا وفرشًا مثل: الكشف لمكي بن أبي طالب، والإقناع لأبي جعفر بن الباذش وغيرهما.

وقد عرض ابن الجزري في كتابه: النشر أبوابًا من التجويد، وله مؤلفات خاصة بالتجويد. مدخل في علوم القراءات (ص: ١١٧)

وأقدم ما ألف في التجويد بخاصة -فيما أعلم- قصيدة أبي مزاحم الخافاني المتوفى سنة ٣٢٥هـ، ونشرت محققة بعناية الدكتور عبد العزيز القاري.

ومنها: الرعاية لتجويد القراءة، وتحقيق لفظ التلاوة، لمكي بن أبي طالب١.

ومنها: كتاب جمال القراء، وكمال الإقراء قصيدة نونية لعلم الدين أبي الحسن علي بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣هـ قال عنه ابن الجزري: وهو غريب من بابه جمع أنواعًا مما يتعلق بالقراءات، والتجويد والوقوف والابتداء٢.

وهذا المؤلف هو بنفسه عروة المفيد٣، وعدة المجيد في معرفة لفظ التجويد، جمعه الدكتور عبد العزيز مع قصيدة أبي مزاحم في مؤلف واحد.

ثم تكاثرت المؤلفات فيما بعد في علم التجويد خاصة، وغلب على أكثرها طابع النظم، مثل: من الجزرية، وتحفة الأطفال، ثم أخذ المحدثون يشرحون هذه المتون مثل: ملخص العقد الفريد في فن التجويد للشيخ على أحمد صبره سنة ١٣٣١هـ، والإتقان في تجويد القرآن للشيخ محمد الصادق قمحاوي.

والدرس اللغوي الحديث توفر على دراسة التجويد باعتباره يمثل جهود العرب في الدراسات الصوتية.

وقد تناولت في هذا الكتاب فصولًا من التجويد عند الحديث عن الأصول.

فتحدثت في الأصول عن الموقف قضية واحدة سواء ما يتصل منه بالقراءات أم ما يتصل منه بالتجويد، ونحو ذلك فعلت في الحديث عن التفخيم والترقيق، والإظهار والإدغام.

لكني هنا أقدم حديثًا موجزًا ووافيًا عن قضيتين من قضايا التجويد وهما:

١- مخارج الحروف.

٢- صفات الحروف. مدخل في علوم القراءات (ص: ١١٨)

مخارج الحروف وصفاتها

مخارج الحروف

...

مخارج الحروف وصفتها:

مخارج الحروف:

حروف الهجاء في اللسان العربي، أو الأصوات خمسة وثلاثون حرفًا.

ماله صورة منها ترسم تسعة وعشرون حرفًا١.

أما الحروف التي لا ترسم فهي ستة: الهمزة بين بين، والألف الممالة، وألف التفخيم والحرف المعترض بين الشين والجيم، والحرف المعترض بين الزاي والصاد، والنون الخفيفة٢.

وسنشير بإيجاز إلى مخارج هذه الحروف، ليسير القارئ علىمدخل في علوم القراءات (ص: ١١٩)

هديها في تجويد الأداء للكتاب العزيز.

أ- مخارج الحلق: للحلق ثلاثة مخارج فمن أقصى الحلق مخرج الهمزة وهي أبعد الحروف، ويليها في البعد مخرج الهاء.

ويليه المخرج الثاني، وهو مخرج الحاء والعين "وهو وسط الحلق".

والثالث: أدنى الحلق مما يلي الفم، وهو مخرج الخاء والغين.

وهذه الحروف الستة هي المعروفة بحروف الحلق.

ب- اللسان والفم وفيهما عشرة مخارج.

١- أقصى اللسان -أي: أبعده مما يلي الحلق، وما يحاذيه من الحنك الأعلى، ويخرج منه القاف.

٢- أقصى اللسان -مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى تحت مخرج القاف، ويخرج منه الكاف وهذان الحرفان يقال لهما: لهويان لخروجهما من قرب اللهاة.

٣- وسط اللسان: مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، ويخرج منه الجيم والشين والياء وتسمى هذه الحروف شجرية لخروجها من "شجر" اللسان أي منفتحة١.

٤- إحدى حافتي اللسان، وما يحاذيها من الأضراس العليا -تخرج منها الضاد، المعجمة وخروجها من الجهة اليسرى أسهل وأكثر استعمالًا، ومن اليمنى أصعب وأقل استعمالًا، ومن الجانبين أشد عسرًا؛ ولذا فهي أصعب الحروف مخرجًا٢. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٢٠)

- ما بين حافتي اللسان معًا، بعد مخرج الضاد، وما يحاذيها من اللثة أي لحمة الأسنان العليا، يخرج منه اللام، وخروج حرف اللام، الحافة اليمنى أمكن عكس الضاد.

٦- طرف اللسان، وما يحاذيه من لثة الأسنان العليا تحت مخرج اللام قليلًا تخرج النون المظهرة بخلاف المدغمة، والمخفاة، فمخرجها الخيشوم.

٧- طرف اللسان مع ظهره مما يلي رأسه، ويخرج منه الراء، وهو أدخل إلى ظهر اللسان من النون وتسمى الحروف الثلاثة "اللام- النون- الراء" زلقية لخروجها من ذلق اللسان أي طرفه.

٨- طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا، وتخرج منه الظاء والذال والثاء، وتسمى هذه الحروف لثويه لخروجها من قرب اللثة.

٩- طرف اللسان مع ما بين الأسنان العليا والسفلى، قريبة إلى السفلى، مع انفراج قليل بينهما، وتخرج منه الصاد فالسين فالزاي، وتسمى هذه الحروف أسلية من أسلة اللسان، أي مستدقة.

١٠- ظهر اللسان من جهة رأسه، وأصل الثنيتين العليين، ويخرج منه الطاء فالدال المهملتان فالتاء المثناة الفوقية.

ج- الشفتان.

١- بطن الشفة السفلى مع أطراف الثنايا العليا، ويخرج منه الفاء.

٢- الشفتان معًا، ويخرج منهما الباء الموحدة والميم والواو إلا أنهما بانطباق مع الميم والباء، وانفتاح مع الواو تسمى هذه الحروف شفوية لخروجها من الشفة.

د- الجوف. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٢١)

- وهو الخلاء الداخل في الحلق والفم، ويخرج منه حروف المد الثلاثة: الألف ولا تكون إلا ساكنة، ولا يكون ما قبلها إلا مفتوحًا، والواو الساكنة المضموم ما قبلها، واليا الساكنة المكسور ما قبلها، وتسمى هذه الحروف بالجوفية أو الهوائية.

هـ- الخيشوم.

الخيشوم وهو خرق الأنف، المنجذب إلى الداخل فوق سقف الفم، وليس بالمنخر ويخرج منه الغنة، والنون المدغمة والمخفاة كما أشرنا.

فالمخارج الفرعية كما رأينا سبعة عشر، وهي موزعة على خمس مخارج رئيسة في منطقة الفم ومن كل منهما يخرج حرف أو أكثر.

ومعرفة هذه المخارج، وملاحظتها في النطق والأداء أكبر عون على تجويد التلاوة، وتحقيق معنى الترتيل، كما أنها من ناحية أخرى تحافظ على الخصائص الصوتية للسان الغربي.

وهنا قضية أخرى نختم بها القول في مخارج الحروف.

اختلف العلماء في عدد مخارج الحروف. ولهم في ذلك مذاهب ثلاثة:

ذهب الخليل بن أحمد وأكثر القراء والنحويين وتبعهم ابن الجزري إلى أنها سبعة عشر مخرجًا على الوضع الذي شرحناه، والتزمنا به.

وذهب سيبويه والمبرد، وتبعهما الشاطبي إلى أنها ستة عشر مخرجًا.

وذهب الفراء وقطرب والجرمي إلى أنها أربعة عشر مخرجًا.

فمن جعلها سبعة عشر، وزع الحروف على النحو التالي: في الجوف مخرج، ومن الحلق ثلاثة، وفي اللسان عشرة، وفي الشفتينمدخل في علوم القراءات (ص: ١٢٢)

اثنان، وفي الخيشوم واحد.

ومن جعلها ستة عشر: أسقط مخرج الجوف، ووزع حروفه وهي حروف المد على بعض المخارج فجعل الألف مع الهمزة من أقصى الحلق، وياء المد مع الياء المحركة من وسط اللسان، وواو المد من الشفتين مع الواو المحركة.

ومن جعلها أربعة عشر: أسقط مخرج الجوف كذلك، وجعل مخارج اللسان ثمانية بجعله مخرج اللام والراء والنون واحدًا.

وقد التزمت في العرض السابق مذهب ابن الجزري، وهو المشهور عند أهل الأداء والذي سار عليه من قبل الخليل وجمهرة من النحويين والقراء كما ذكرنا١. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٢٣)

صفات الحروف:

صفات الحروف: كيفية تعرض للحرف عند حدوثه من مخرجه تميزه عن غير كالشدة والرخاوة ونحوهما.

وحروف الهجاء العربي لها صفات متعددة لاحظها العلماء المتمرسون بخصائص الصوت العربي فأوصلها بعض العلماء إلى أربع وأربعين صفة، ومنهم من نقصها إلى أربع عشرة صفة بحذف الإذلاق وضده، والانحراف واللين، وزيادة صفة الغنة.

ومنهم من عدها ست عشرة بحذف الإذلاق وضده أيضًا، وزيادة صفة الهوائي.

واختار العلماء وأهل الأداء مذهب ابن الجزري في عدها سبع عشرة صفة.

والناظر إلى هذه الصفات التي أحصاها العلماء يجدها قسمين:

١- قسم منها له ضد، وهي خمس: الهمس وضده الجهر، والشدة والتوسط وضدهما الرخاوة، والاستعلاء وضده الاستفال، والإطباق وضده الانفتاح، والإذلاق وضده الإصمات.

٢- والقسم الآخر صفات لا ضد لها وهي سبع: الصفير والقلقلة والانحراف والتكرير، واللين، والتفشي، والاستطالة.

وإليك بيانها وبيان الحروف التي تتصف بكل منها.

١- الهمس لغة الخفاء، واصطلاحًا: جريان النفس عند النطق بالحرف لضعف الاعتماد على المخرج، وحروفه عشرة اجتمعت في قولنا: سكت فحثه شخص.

وبعض حروف الهمس أقوى من بعض، فالصاد والخاء أقوى من بقية الحروف، لما لها من بعض الصفات القوية، وأضعفها الهاء؛ وليس فيها صفة قوية.

٢- الجهر، وهو في اللغة الإعلان، واصطلاحًا: انحباس جري النفس عند النطق بحروفه لقوة الاعتماد على المخرج، وحروفه تسعة عشرة، وهي الباقية بعد استثناء حروف الهمس.

وتختلف حروف الجهر فيما بينها في القوة فالطاء أقوى؛ لأن فيها مع الجهر: استعلاء وشدة.

٣- الشدة: لغة القوة، واصطلاحًا، انحباس جري الصوت عند النطق بالحرف لكمال الاعتماد على المخرج، وحروفه ثمانية جمعت فيمدخل في علوم القراءات (ص: ١٢٤)

قولهم: "أجد قط بكت".

والطاء أقوى حروف الشدة لما فيها من الجهر والاستعلاء والإطباق.

- والتوسط وهو في اللغة الاعتدال، واصطلاحًا: اعتدال الصوت عند النطق بالحرف لعدم كمال انحباسه كما في الشدة، وعدم كمال جريانه كما في الرخاوة، وحروفه خمسة جمعت في قولنا: لنعمر.

٤- الرخاوة ومعناها لغة: اللين، واصطلاحًا: جريان الصوت مع الحرف لضعف الاعتماد على المخرج، وحروفه ستة عشر، وهو بقية حروف الهجاء بعد استعباد حروف الشدة والتوسط.

٥- الاستعلاء، وهو في اللغة: الارتفاع، واصطلاحًا: ارتفاع اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف، وحروفه سبعة يجمعها قولهم: خص ضغط قظ.

٦- الاستفال معناه: الانخفاض، واصطلاحًا: انخفاض اللسان عن الحنك الأعلى إلى قاع الفم عند النطق بالحرف، وحروفه: اثنان وعشرون، وهي حروف الهجاء ما عدا حروف الاستعلاء السبعة.

٧- الإطباق وهو في اللغة: الإلصاق، واصطلاحًا: تلاصق ما يحاذي اللسان من الحنك الأعلى باللسان عند النطق بالحرف، أو بعبارة أخرى: تلاقي اللسان بما يحاذيه من الحنك الأعلى عند النطق بالحرف، وحروفه أربعة: الصاد والضاد، والطاء والظاء وأقواها الطاء، وأضعفها الظاء "المعجمة".

٨- والانفتاح بمعنى الافتراق، ويعني به في الاصطلاح: تجافي اللسان عن الحنك الأعلى عند النطق بالحرف حتى يخرج الهواء منمدخل في علوم القراءات (ص: ١٢٥)

بينهما، وحروفه خمسة وعشرون، وهي حروف الهجاء بعد استبعاد حروف الإطباق.

٩- الإذلاق: هو في اللغة حدة اللسان أي طلاقته وتدفقه في الحديث، واصطلاحًا: سرعة النطق بالحرف لخروجه من طرف اللسان كاللام والراء، والنون أو من الشفتين كالفاء والباء والميم ويجمع هذه الحروف قولنا: "فر من لب".

١٠- الإصمات: لغة المنع، واصطلاحًا: امتناع حروفه من أن يتكون منها وحدها كلمات رباعية أو خماسية، بدون أن يكون فيها حرف من حروف الذلاقة، ومن أجل هذا تأتي كلمة رباعية أو خماسية ليس فيها حرف من حروف الذلاقة فهي غير عربية، كلفظ "عسجد" اسم للذهب، وحروف الإصمات هي حروف الهجاء مستثنى منها حروف الذلاقة.

١١- الصفير: لغة صوت يشبه صوت الطائر: واصطلاحًا صوت زائد يخرج من الشفتين مصاحبًا الحروف الثلاثة: الصاد والسين المهملتين، والزاي المعجمة، وهي المعروفة بحروف الصفير، وأقواها الصاد لما فيها من استعلاء وإطباق.

١٢- القلقلة: هي في اللغة: الاضطراب والتحريك، واصطلاحًا: اضطراب المخرج عند النطق بالحرف ساكنًا حتى يسمع له نبرة قوية، وحروفها خمسة جمعت في قولنا: قطب جد، وسبب الاضطراب شدة حروفها لما فيها من الشدة التي تمنع جريان الصوت، والجهر الذي يمنع جريان النفس.

ولها مراتب ثلاث: أعلاها الطاء، وأوسطها: الجيم، وأدناها: الحروف الباقية. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٢٦)

وهناك من يرتبها حسب حالة الحرف لا على حسب نوعه، فأعلاها: المشدد الموقوف عليه، ثم الساكن في الوقف، ثم الساكن وصلًا، ثم المتحرك.

وتلزم القلقلة هذه الحروف سكونها، سواء أكانت وسطًا أم طرفًا، مثال المتوسطة "خلقنا"، "قطمير"، "ربوة"، "اجتباه"، "يدخلون"، والمتطرفة مثل: "خلاقْ، محيطْ، بهيجْ، مجيدْ". هذا في حالة الوقف عليها؛ إذ إن بيانها حال الوقف أولى، ولا سيما إذا كان الموقوف عليه مشددًا مثل: {جِئْتَ بِالْحَقّ} .

١٣- اللين: وهو في اللغة ضد الخشونة، واصطلاحًا إخراج الحرف في يسر وبلا كلفة، وحروفه: اثنان: الواو والياء الساكنان، والمفتوح ما قبلهما نحو: خوف - بيت.

١٤- والانحراف لغة: الميل، واصطلاحًا: ميل الحرف بعد خروجه إلى طرف اللسان، وله حرفان: اللام والراء. وتلزمهما هذه الصفة لانحرافهما عن مخرجهما، حتى يتصلا بمخرج غيرهما، فاللام إلى ناحية طرف اللسان، والراء إلى ظهره.

١٥- والتكرير لغة: الإعادة مرة بعد مرة، واصطلاحًا: ارتعاد رأس اللسان عند النطق بالحرف، وهي صفة تلزم الراء، والغرض من معرفتها الابتعاد عنها.

١٦- والتفشي لغة: الانتشار والاتساع، واصطلاحًا: انتشار الهواء في الفهم عند النطق بالشين حتى يتصل بمخرج الظاء المعجمة، قيل: إن هذه الصفة خاصة

بالشين وهو الأصح، وقيل: تشاركها في هذه الصفة: الفاء، والثاء، والضاد، والصاد، والراء والسين. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٢٧)

– الاستطالة في اللغة: الامتداد، واصطلاحًا امتداد الصوت من أول إحدى حافتي اللسان إلى آخرها، وهي صفة الضاد المعجمة.

ملاحظات مهمة.

١– هذه الصفات منها صفات قوية وهي اثنتا عشرة صفة: الجهر، والشدة، والاستعلاء، والإطباق، والإصمات، والصفير، والقلقلة، والانحراف، والتكرير والتفشي، والاستطالة، والغنة، وأقواها: القلقلة، فالشدة، فالجهر، فالإطباق، فالاستعلاء، فالباقي.

والصفات الضعيفة هي: الهمس والرخاوة والاستفال، والانفتاح، والذلاقة واللين والخفاء.

٢– من صفات الحروف الغنة، وهي لازمة للنون والميم في كل حالاتهما، والخفاء، وهي صفة لأربعة أحرف: حروف المد الثلاثة والهاء.

٣– هناك فرق بين المخرج والصفة. فالمخرج أقرب إلى الكم والمقدار أو المدى العضوي الذي يقع عليه عبء النطق، وأما الصفة فهي الهيئة التي يظهر بها الحرف عند النطق، فالمخرج بمثابة الوزن والمقدار؟ والصفة بمثابة المحك والمعيار.

٤– لكل حرف صفات عدة لا تقل عن خمس، ولا تزيد عن سبع.

والحرف الوحيد الذي له سبع صفات هو الراء، فهي: مجهورة، متوسطة، مستفلة، منفتحة، مذلقة، منحرفة، مكررة. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٢٨)

ومثال ما له ست صفات الباء، فهي: مجهورة، شديدة، مستفلة، منفتحة، مذلقة، مقلقلة.

ومثال ماله خمس صفات الفاء فهي: مهموسة، رخوة، مستفلة، منفتحة، مذلقة١.